

٢ - ابن خرداذبه للاستاذ كوركيس عواد

يؤخذ مما ورد في بعض المراجع - أن ابن خرداذبه هذا - كان وزيراً ، فقد ذكر البشارى التميمى^(١) في عرض كلامه على « سدّ ذى القرنين » ما هذا نصه :-

« قرأتُ في كتاب ابن خرداذبه^(٢) وغيره في قصة هذا السد على فسق واحد ، واللفظ والإسناد لابن خرداذبه ، لأنه كان وزير الخليفة ، وأقدر على ودائع علوم خزّانة أمير المؤمنين ... » ويؤسفنا أنه لم يُبشر إلى اسم ذلك الخليفة الذى وُزّر له ، والمرجّح عندنا أنه كان « المتمد »

وقد بحثنا فيما بين أيدينا من تواريخ الدولة العباسية ، والمستنقعات الباحثة في أخبار الوزراء خاصة ؛ فلم نجد بين هاتيك اللواتى من ذكر أن ابن خرداذبه كان وزيراً لخليفة من الخلفاء . والقى نذهب إليه أنه كان وزيراً بالإيم فقط ، وهذا أمر معروف عند متتبي أحوال الإدارة في تلك الأزمنة التى كثرت فيها الوظائف ، واسطنمت فيها الألقاب !

ومهما يكن من أمر ، فى العبارة التى قلناها عن البشارى ، خير دليل على عظم منزلة ابن خرداذبه عند الخليفة ، وعلى اعتماد ذلك الخليفة عليه فى أمور خزانته الحافلة

وقد ذكر ابن خرداذبه نفسه بنفسه ، فى أوائل كتابه « للسالك والملايك » ، ولجأ إلى مكانه من الخليفة بقوله^(٣) :

« هنا كتاب فيه صفة الأرض ، وسنية الخلق عليها ، وقبلة أهل كل بلد والملايك والسالك إلى نواحي الأرض ، تأليف أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه ، مولى أمير المؤمنين » والظاهر أن « أمير المؤمنين » هنا ، قد كان المتمد أيضاً ، على ما تحرف من صلة وثيقة بينه وبين هذا الخليفة

(١) أحسن التمام (ص ٣٦٢)

(٢) نجد الخبر بكلمة فى كتاب للسالك والملايك لابن خرداذبه

(ص ١٦٢ - ١٧٠)

(٣) للسالك والملايك (ص ٤)

ولعبيد الله ابن خرداذبه أخبار تفرقت فى شعر بعض معاصريه فيها ما يسير إلى أصله « الفارسي » ، وما يشيد بذكر عائلته العريقة فى المجد ، وما يدل على سمو منزلته فى الدولة

روى أبو بكر الصولى فى كلامه على الشاعر أبي الطيب محمد ابن عبد الله بن أحمد بن يوسف أنه قال : « وكتبت إلى ابن خرداذبه ، وقد دام المطر « بسراً من رأى » وتأخرت عنه : لعمري لئن سرّ الحيا فى مواطن لقد ساءنى أن عاقنى عن لقائك وقد كنت مشغوقاً بذلك أريده فقال قضاء الله من دون ذلك فصيف لى قد تك النفس أمراً يسرى

وأحمد فيه الله من حسن حالكا وحال أخينا أحسن الله صنعه وحال قاتك منعا فى كتابكا^(١) » فهذا الشاعر ، على ما يبدو من الأبيات المتقدمة ، قد كان صديقاً حميماً لابن خرداذبه . ونظيره فى هذه الصداقة كان البحترى الشاعر المشهور المتوفى سنة ٢٨٤ هـ ، وقد وقفنا فى ديوان شعره على قطع له فيه . من ذلك ما قاله فى عبدون بن غنم^(٢) وقد كتب بها إلى ابن خرداذبه^(٣) :

أبلغ لديك عبيد الله مالك^(٤) وما يدار عبيد الله من بعد أصحت بقطربيل^(٥) والديز^(٦) حلتته

وما يجاور بيت النار ذا العمد لم تدر ما بي وما قد كان بعدك من . تفاسى لك فى عبدون أو حسدى أغر ، أحسب نعماء الجليبة من

ذخارى لصروف الدهر أو عدوى إذا مضى اليوم لا نلقاه فيه مضى سرورنا وترقبنا^(٧) بحجى غد

(١) كتاب الأوراق [قسم أخبار الشعراء] للصولى (ص ٢٤٩)
(٢) جاء ذكره فى حوادث سنة ٢٧٢ من تلخيص الطبرى (السلسلة الثالثة ، ص ٢١٠٩)
(٣) ديوان البحترى (١) : ٢١٠ طبع الجواثب فى الآسنة سنة ١٣٠٠ هـ ، أو ص ٣٢٥ - ٣٢٦ طبع بيروت سنة ١٩٠٠
(٤) الثالثة : الرسالة .

(٥) قطربيل من مواطن الهنز والأنس ، بين بئداد وسامراء ، وهى مشهورة بجزرها . ضبطها يفتوت بالقسم ثم السكون ثم فتح الراء وياه موحدة مشددة مضمومة ولام ، وقال إنه روى فى ضبطها : يتبع أهله وطاه وأما الباء فمشددة مضمومة فى الروايتين

(٦) فى طبعة بيروت : والشار والوجه ما فى أعلاه

(٧) فى طبعة الآسنة : وترقبنا ، وهو تحريف

إن فات في السبت أن زردار^(١) سيدنا

فلا تفتننا لشيء زورة الأحسد

وفي القطعة التالية، يوجه البحترى الكلام إلى ابن خرداذبه بعد أن خلع عليهما عبدون بن مخلد. وفي هذه إشارة صريحة إلى ما كان من صلة بين عبدون وابن خرداذبه. قال البحترى^(٢):

يا أبا القاسم استجدد لنا عبدو ن حلالاً تمامها في ضمانة
جمعتنا مودة واجتمعنا بعد في بره وفي إحسانه
قد لبسنا ثيابه وتسايرنا بتقريظه على محلاته^(٣)
وأجزل قائدة من ذلك، ما قاله البحترى في مدح عبيد الله
ابن خرداذبه، وذكر صداقته، وتهنئته بمخروجه من علة كان فيها
ودونك ذلك: ^(٤)

إن ترج طول عبيد الله لا تحب

أو ترم في غرض من سببه^(٥) نصب

لم تلق مثل مساعيه التي اتصلت

وما قيل^(٦) منها عن أب قاب

رأى صليب على الأيام يتبعه

ظرف متى يعترض في عيشنا يطب

ذاك أخ أفتديه إن يحبس أذى

بالنفس مما توفاه^(٧) وبالنسب^(٨)

[إذ^(٩) كان^(١٠) من فارس في بيت سؤدها

وكنت من طي^(١١) في البيت والحسب^(١٢)

(١) زردار: تزور

(٢) ديوان البحترى (١ : ٢١١ طبع الجواثب، أوس ٢٢٦ طبع

بيروت)

(٣) الملائن: ما يحمل عليه من الهواب في الهبة خاصة

(٤) ديوان البحترى (٢ : ١٠ - ٢١ الجواثب، ص ٤١٥ -

٤١٦ بيروت)

(٥) السيب: الطاه أو اللال. الجمع: سيوب

(٦) يقال: تقبل أباه، بمعنى أشبهه

(٧) النسب: اللال

(٨) الأبيات الثلاثة بين الرمين رواها المصري الفيرواني في زهر

الآداب (الطبعة الثانية ٣ : ١٨٢ للدكتور زكي مبارك)

(٩) في زهر الآداب: إن كنت

(١٠) في زهر الآداب من عمدي

(١١) في زهر الآداب: والنسب

قلم يضرنا^(١) تنأى المنصين وقد

رُحنا نسيبين في خلق^(٢) وفي أدب

إذا تشاكت الأخلاق واقتربت^(٣)

دنت مسافة بين العجم والعرب^(٤) [

إسلم ولا زلت في ستر من الثوب

وعش حميداً على الأيام والحطب

ولهنك البرء مما كنت تأك

والأجر في عقب ذاك الشكر والوصب

أوحشت، مذغبت قوماً كنت أنهم

إذا شهدتهم فشهد ولا تقب

إلا تكن ملكاً ننتي تحيته

فإنك ابن ملوك سادة مجيب

وإن قصدت ابتناء البرء من سقم

قد أرق دماً يشق من الكلب

وغنى عن القول أن ابن خرداذبه، وهو الفارسي الأصل،

كان يعرف اللغة الفارسية، ولا ندرى ما إذا كانت له كتابات

أو تأليف بهذه اللغة. وإنما وجدناه في كتابه للمساك والمالك

يستشهد في موطنين^(٥) بشعر فارسي

أما سنة وفاته، فلست على علم ثابت منها. وقد وجدنا الحاج

خليفة^(٦) يقول إن ابن خرداذبه توفي في حدود سنة ٣٠٠^(٧)

للجرة، ولعل هذا صحيح، غير أننا لم تقف في كتاب قديم على

ما يدعم هذا القول

وقد قلنا إن ابن خرداذبه نادم المتمد وخص به. ومعروف

أن المتمد ولد سنة ٢٢٩، وبويج له بالخلافة سنة ٢٥٦، وتوفي

سنة ٢٧٩، فيكون ابن خرداذبه قد بلغ أوج عزه خلال هذه

الفترة المنحصرة بين ٢٥٦ و ٢٧٩ للهجرة.

(١) في زهر الآداب: فلن يضر

(٢) في زهر الآداب: في علم

(٣) في زهر الآداب: إذا تحارت الآداب والتأمت

(٤) في زهر الآداب: بين العرب والعجم، وهو مخالف للثقافية

(٥) المساك والمالك (ص ٢٦ و ١١٨)

(٦) كشف الظنون (٢ : ١٠١ طبعة فلوجل)

(٧) في دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فرید وجندي (٣ : ٦٩٣)

أه توفي في حدود سنة ٣٠٠ هـ، وهو خطأ بطبي ظاهر

منار الدين وخيرة الله من الخلق أجمعين ، وأدام الله لك السعادة ،
 وكثرتك الزيادة من جميع الخيرات ، ووقتك لسبيل الصالحات ،
 وجعلك ممن ارتضى أفضاله وزين أحواله . فتمتُ القى سألت ،
 أفهمك الله جميع الخيرات وأسمعك إلى المات ، وأفلح في العارين
 سهمك ، ووفر فيهما قسمك ، من رسم إيضاح مسالك الأرض
 وممالكها ، وصفتها وبعدها وقربها وعاصرها وغايرها ، والمسار
 بين ذلك منها من معاووزها وأقسامها ورسم طرقها وطسوقها (١)
 على مارسمه المتقدمون منها . فوجدت « بطليوس » قد أبان
 الحدود وأوضح الحجج في صفتها بلغة أمجية ، فنقلتها عن لنته
 باللغة الصحيحة لتقف عليها ، وقد رسمت ، رسم لك فوز الحق
 في جميع مأمولك ومطالبك ، ما رجوت أن يكون محيطاً بمطلوبك
 وآتياً على إرادتك كالمشاهد لما نأى والخبر بما قرب ، وصنمته
 كتاباً انتجته بالحمد لله ذي العزة النعمة والنعمة السابغة ، القى
 أنشأ الخلق على ما أراد ، وبين سبيل الحق للضاد ، لم تشركه في خلقه
 الآراء التوهمة ولا ظنون الرؤيات ، تعالى الله عما يشركون ،
 وصلى الله على محمد نبيه ، وعلى الأخيار من عترته وسلم كثيراً « ١٥
 والمعروف في وقتنا أن لهذا الكتاب ثلاث نسخ خطية ،
 اثنتين منهما في خزنة أ كسفرود وفيها خروم

وكان المستشرق بلريه دي مينار *Barbier de Meynard*
 أول من نشر هذا الكتاب وقوله إلى الفرنسية (المجلة الآسيوية
 الفرنسية ، السلسلة ٦ ، المجلد ٥ ، سنة ١٨٦٥ ، ص ٢٢٧ وما بعدها
 ثم عني بتجديد طبعه العلامة دي غويه *de goeje* فشره مترجماً
 إلى الفرنسية أيضاً (الخزنة الجغرافية العربية ، ج ٦ ، ليدن ١٨٨٩
 في ١٨٣ صفحة للفرن ، و١٤٤ للترجمة . ولبه في المجلد نفسه نذراً
 من « كتاب الخراج وصنعة الكتابة » مقدمة بن جعفر الكاتب
 البغدادي ، للتوفى سنة ٣٩٠ أو ٣٢٠ ، صفحة ١٨١ - ٢٦٦)
 وجديرةً بالمشاية تلك التحقيقات الثمينة والتعليقات الدقيقة
 والقهارس التقنية التي تحلى بها هذا الكتاب . وقد اشتملت
 المقدمة التي كتبها الناشر دي غويه بالفرنسية على فوائد جزيلة ،
 جاءت في ٢٣ صفحة . وصفوة القول أن هذه الطبعة نفيسة ، فيها

وذكرنا ما كان من صداقة بينه وبين البحري التوفى
 سنة ٢٨٤ هـ . إلا أن المراجع التي بأيدينا لا تبيننا على معرفة
 ما إذا كان ابن خرداذبة قد توفى قبل البحري أو بعده .

وما قلناه في عبيد الله ، قوله في سائر بني خرداذبة ، فإننا
 نجعل سني وفياتهم ، فضلاً عن أن علنا بسائر أخبارهم وشؤونهم
 ما زال مقتضياً يسيراً . وحسبك أن تعلم أن الترجمة الوحيدة
 لمبيد الله ابن خرداذبة ، هي التي كتبها ابن النديم في فهرسته ،
 وهي أقل من خمسة أسطر

٥ - مؤلفات ابن خرداذبة

سبقت الإشارة إلى بعض تصانيف ابن خرداذبة ، التي خلدت
 اسمه على كرم المصور . وهذه المؤلفات قد تزيد على العشرة ،
 ذكر ابن النديم (٢) ثمانية منها ، ضاع أغلبها فيما ضاع من تراث
 الأقدمين . وإليك الآن أسماءها وما نعلمه من أمرها :

١ - كتاب أدب السباع .

٢ - كتاب جمهرة أنساب الفرس والنوائل .

٣ - كتاب المسالك والممالك : ضمنه إحصاء جباية الملكة
 البياسية في أواسط المائة الثالثة للهجرة (٣) . وهو من خيرة المراجع
 القديمة في معرفة الطرق والممالك ، وتعيين المسافة بالقراسخ
 أو بالأميال بين مكان ومكان ، على ما كان معروفاً عند القوم
 في ذلك الزمان . ولا مرء ، إن ابن خرداذبة كان الرجل الثقة
 في مثل هذه البيانات ، لأنه تولى أعمال البريد . ومن المعلوم أنه
 « لا غنى بصاحب هذا الديوان أن يكون معه منه ما لا يحتاج
 في الرجوع فيه إلى غيره ، وما إن سأله عنه الخليفة وقت الحاجة
 إلى شخوصه وإقآذ جيش يهيم أمره ، وغير ذلك مما تدعو
 الضرورة إلى علم الطرق بسية ، ووجد عتيداً عنده ومضبوطاً
 قبيله ، ولم يحتاج إلى تكلف عمله والمثلة عنه (٤) »

ويموت لنا واضحاً أن ابن خرداذبة لم يؤلف هذا الكتاب
 إلا يطلب من شخص كبير لم يصرح باسمه ولعله أحد الأمراء .
 قال في أول كتابه ، وفيه ما يوضح غرضه من هذا السفر ما إليك
 نصه بالحرف الواحد (٥) :

« أطال الله تعالى بقاءك يا ابن السادة الأخيار والأئمة الأبرار

(١) الفهرست (فلوجل ١٤٩ ، ٢١٣ مصر)

(٢) نشر جرجي زيدان ، خلاصة ذلك الإحصاء في تاريخ المدن

الإسلامي (٢ : ٥٩ - ٦١)

(٣) كتاب الخراج وصنعة الكتابة مقدمة بن جعفر (ص ١٨٥)

(٤) كتاب المسالك والممالك (ص ٣)

(١) الطسوق ، واحدها الطسق (بالفتح فالتسكون) ، ما يوضع من
 الخراج المقرر على الجيران (جمع الجريب ، وهو على ما في التاج : ١٧٩
 ثلاثة آلاف وستة فراع) ، أو هو شبه ضريبة صلومة ، والكلمة من
 الخيل (أنظر تاج الروس : ٦ : ٤٢٣)